

جهاد شعب مصر

في سبيل حقوقه في القرن الثامن عشر

للأستاذ محمد فريد أبو جديد

أنف الأستاذ محمد فريد أبو جديد كتاباً أسماه : سيرة السيد عمر مكرم ، تنبع فيه تاريخ الحركة القومية في مصر منذ القرن الثامن عشر وتناول سيرة : السيد عمر مكرم ، زعيم مصر إذ ذاك ، وأوضح فيه سعي مصر إلى الحرية والاستقلال في حقير العصر الحديث ، وبين أن الروح القومية والتطلع إلى الحرية كانا قويين منذ القرن الثامن عشر والكتاب تحت الطبع ، وينظر قريباً ، وهذا الفصل الممتع من ذلك المؤلف القيم :

ولم يكن صوت
المصريين داوياً في
مجموعات الديوان
وحدها ، بل كان للشعب
منافذ أخرى يعبر بها عن
إرادته ويردد منها شكواه
ويرسم بوساطتها أمانيه
ومثله العليا ، فإن بعض
المتكلمين من الوعاظ
الدين كانوا يتعاقبون في

تلك العصور كانوا بمثابة الصحفيين يعقدون مجالسهم في المساجد

مرض ، والمرء يصاب بالأمراض في حالتي الصحة والضعف ولكنه يكون أكثر تعرضاً للمرض في حالة الفتور الحفي الذي يضعف المقاومة ، لأنه يغري بالاطمئنان على حين ينبغي الحذر . أو هو في حقيقته ضرب من الجوع كما قلت . وفي الناس الشره المبطان ، وفيهم القنوع الذي يكفيه اليسير الموجود . والجوع ضعف . والجائع لا يملك من القدرة على مقاومة الاغراء ما يملك الشبعان

هذا جواب بعض ما وردني من المسائل . وقد ملك الحب وذكره ، ولم أكن أظن أن الكتابة فيه تثير كل هذه الضجة ، قاتل الله الشعر والشعراء !!

ابراهيم جبر القادر المازني

فيلقون فيها دروساً في معاني العدل وواجبات الحكم وحقوق المحكومين ، ويدرسون في خلال تلك الدروس نقدات للحكام لا يحشون منهم غضباً ولا يتوجسون منهم خوفاً ، وكان بعض الحكام يصيق بنقدمهم ؛ ولكنهم كانوا في أغلب الأحوال يتركونهم آمنين أحراراً لا يقيدون ولا يعاقبون على ما يصدر عنهم من النقد . وكان تقدمهم في كل الأحوال نقداً عالياً نبيلاً يقصدون به تصوير المثل الأعلى للحكم ، ويدعون فيه إلى العدل وأداء الواجب . ولعل أول من نبغ من هؤلاء الوعاظ هو الشيخ الحفني الذي كان يعاصر ملك مصر العظيم على بك الكبير . وهو محمد بن سالم الحفناوي أو الحفني الحسيني نسباً وكان زاهداً ورعاً كريماً كثير البذل للفقراء . واتخذ سبيل الدعوة إلى الخير على طريقة صوفية اسمها الطريقة الخلوتية وكثر أتباعه واعتقد فيه الناس اعتقاداً كبيراً سواء في ذلك العامة والخاصة ، حتى قال عنه الجبرتي صاحب : عجائب الآثار : : : إنه كان قطب رحي الديار المصرية لا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه ومشورته ، وكان لا يتردد في إبداء نصحه صريحاً قوياً وإن كره أهل الحكم رأيه وصراحته

وكان الشيخ الحفني فوق هذا عضواً في ديوان الحكومة يمثل الشعب المصري مع جماعة من اخوانه تمثيلاً رائعاً ، حتى كان على بك الكبير على شدة وقوة ملكه لا يستطيع مقاومته ولا معاداته . وكان في مناقشاته في الديوان لا يتردد أحياناً أن يهدد الحكام باسم الشعب إذا هم عمدوا إلى ما يسيء إليه أو يضر بمصلحته ، فقد وقف مرة يناقش في ضرورة إرسال حملة حربية لإخضاع بعض الأمراء الخارجين في الصعيد . وكان رأيه أن تلك الحملات الحرية تضر بالناس وتعطل مصلحتهم ، فلم يتردد في آخر خطبته القوية أن يصيح قائلاً : : والله لن نسمح أن يسافر أحد وإن سافرت الحملة فلن يحدث خير أبداً ، ولما توفي الشيخ الحفني حل محله في زعامة النقد واعظ

آخر وهو ابن النقيب السيد علي بن موسى الحسيني المقدسي ، وعرف بابن النقيب لأن جدوده كانوا نقباء الأشراف في بيت المقدس . وكان واسع العلم يلقي دروساً في المسجد الحسيني في التفسير والفقه والحديث . وكان فوق ذلك كاتباً أديباً

حسن الأسلوب ، وزاهداً لا يرضى بتنىء يملكه على سائليه . ولهذا كانت له مكانة عظيمة في قلوب الناس . وكان فوق كل هذا فارساً ماهراً في فنون الحرب واستعمال السلاح واللعب بالرمح ، فكان يجمع كل صفات النساك المحاربين الذين ينجون نهج القاضي عيسى الهكاري الذي كان معاصراً لصالح الدين الأيوبي واشترك معه في محاربة الصليبيين .

وكان أهل مصر يعرفونه بالحدث ، ومع أنه كان محبوباً عند الأمراء ورجال الدولة لم يتمتع عن نقد ما كان يراه فيهم وفي أحكامهم من العيوب ، وكان نقده أحياناً يبلغ حد المرارة والغضب . ولكن صدر هؤلاء الحكام لم يضق به ، ولم يحدث له من وراء نقده أى ضرر . مع أنه ذهب مرة إلى القسطنطينية حوالى عام ١٧٦٣ للبلاد فلم يسمح له بالبقاء طويلاً فيها لما عرف عنه من الصراحة في النقد ، واضطر إلى العودة إلى مصر . وكان الأمير محمد بك أبو الذهب يرحب به ويوسع له في مجلسه مع ما يلقى منه من النقد ، وكان يقابل نقده بالإحسان فوق التسامح ، ومن ذلك أنه سأله مرة عن حاله ، وكيف وجد عاصمة الخلافة في استامبول عند زيارته لها ، فكان جوابه على ذلك قوله : « لم يبق باستامبول خير ولا بمصر كذلك خير ، فلا يكرم بهما بالإشرار الخلق ، فلم يغضب الأمير من رده بل أرسل إليه بعد انصرافه من مجلسه هدية قدرها مائة ألف نصف فضة ليقتضى بها ديونه ولينفق منها على الفقراء كمادته .

وقد عاصر هذا الواعظ الكبير شيخ آخر جليل كان ينهج مثل نهجه مع شئ من الاعتدال ، وهو الشيخ على الصعيدى وكان معاصراً للملكى مصر العظمين على بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب . وبلغ من إكرام هذين الملكين له أنهما كانا إذا دخل عليهما أفسحا له وقلاً يده ، ولم يردا له شفاعته ، وكان كثير الشفاعة عندهما ، يتدخل لمصالح الناس . فكان من الدولة بمثابة النائب الشعبي الذى يسمى لمصالح الناس عند أهل الحكم . وكان الناس يلجأون إليه إذا ما مسهم ما يشكون منه ، فيكتب شكواهم في ثبث ويدخل بها على الأمير فلا يخالفه في شئ مما يرجوه فيه ،

ولا يتقبض عنه ، وكان يقول لمحمد بك أبو الذهب إذا وجد منه شيئاً من التردد : « لا تضجر ولا تأسف على شئ يفوتك بغير حق في الدنيا ، فإن الدنيا فانية وكلنا موت ويوم القيامة يسألنى الله عن تأخرنا عن نصحك ؛ وهانحن قد نصحتك وخرجنا من العهدة . فاذا امتنع الأمير عن إجابة مطلب له صرخ وقال له : « اتق النار وعذاب جهنم ، ثم يمسك يده ويقول له : « أنا خائف على هذه اليد من النار .

وسند كر فيما يأتى أسماء بعض زعماء الشعب الذين اتجهوا فيما بعد خطوة أخرى غير النقد والنصح عند ما تحولت مجارى الأمور في أيام مراد وإبراهيم . وحسبنا هنا أن نقول إن أمراء مصر في أثناء القرن الثامن عشر كانوا يحاولون بكل ما استطاعوا أن يكون حكمهم مرضياً عنه عند الشعب ، وأن يكونوا في سياستهم موفقين إلى العدل فيهم بحسب عقلية عصرهم وأساليبه وكانوا يعملون على تقريب أهل العلم والأعيان والأدباء ، ويشجعونهم على غشيان مجالسهم ، فكانت مجالس على بك الكبير تمتاز بوقار من يؤمها من العلماء الأجلاء ، والزهاد الفضلاء . وكذلك كانت مجالس أبي الذهب من بعده ، في حين كانت مجالس الأمير رضوان بعد ذلك مضرب الأمثال في البهجة الفنية والسمو الأدبى ، حافلة بأسماء تباهى بها مصر من الأدباء المبرزين الأعلام ، وكان هذا التقريب عاملاً من أقوى العوامل على إيجاد روح من الود طالما ساعد على تبادل العطف بين الحاكم والمحكوم ، وهو عطف كان يؤدي بغير شك إلى إصلاح الحكم والمحافظة على حقوق الناس وعواطفهم .

ولما تولى الطاغيتان إبراهيم ومراد ؛ تنير الحال واختل الأمر ورأى الشعب أن لا بد له من انتهاء خطة جديدة للمحافظة على حرياته وحقوقه ؛ فخطا خطوة جديدة لم يسبق له عهد بها . فان الطاغيتين كانت تحيط بهما هالة من أهل الطاغوت ، وهى عصبه للشر ما كانت تنبذ إلى حق ، ولا ترعوى عن غي ، ورأى أهل مصر أنهم حيال نوع جديد من الحكم ، لا تنفع فيه النصيحة ولا تستقيم معه الأمور على الشفاعة ، ولم يكن للشعب بعد أن عجز عن النصح إلا ذلك الحق الطبيعى الذى للشغب وهو أن يرغم الحكام على الإصلاح ، وهكذا رأى أهل مصر ألا ملجأ

لهم من طغيان إبراهيم ومراد، إلا أن يلبأوا إلى القوة والثورة. بعد مضي سنة واحدة من حكم الطاغيتين، ثارت مسألة في خلاف على وقف، ولم يكن للمسألة في ذاتها خطر خاص، بل كان القصد منها نضالاً على مبدأ قانوني وهو: هل يجوز للأمير القوي أن يبدل بقوته ويثور على القانون فيعصاه، أم لا بد له من الخضوع للقانون ولو كان خصمه ضعيفاً لاستدله من سلطان الدولة، وكانت الخصومة بين رجل من أفراد الشعب، وأمير من كبار الأمراء من عصابة الطغيان، واعتصم الرجل الضعيف بالشريعة فلجأ إلى القضاء، ولوح الأمير القوي بالقوة والبطش. وحكم الشرع للرجل الضعيف، فأبى الأمير الإذعان للحق؛ وأصبح الأمر معلقاً بين أن ينتصر القانون، وبين أن يحتاج القوة كل سياج وكل حرمة.

فأدرك العلماء أن واجبهم بتأديبهم — وهم ممثلو الشعب والطبقة المستتيرة منه — بالمحافظة على القانون والحق، ولم يترددوا لحظة، بل هبوا لنداء الواجب، وتصدد فيهم زعيم اسمه الشيخ الدردير، رحمه الله وطيب ثراه، فأرعد الأمير المدلل وأبرق، وأرغى وأزبد، ونهر وتوعد، فوقف العلماء وثبتوا، وأرغوا وأزبدوا كذلك، وقام الشعب من ورائهم يؤيدهم. وكانت مظاهرة كبرى، فأغلق الناس حوانيتهم لينظروا مآل النضال بين الحق والقوة، وأوشك الأمر أن يؤدي إلى فوزي شاملة، لولا أن جزع عقلاء الأمراء من ذلك الاضطراب، وأشفقوا من تلك الحال فاجتمعوا وتشاوروا ثم أرسلوا إلى الأمير المعاند فلاموه على وقفته، وأمره بالنزول على ما أراد القانون، فأذعن وهو كاره بعد مشادة عنيفة، ولم يرض العلماء أن يدعوا الأمر يفلت من أيديهم بغير حق مسجل يكتسبونه للناس، فطلبوا أن تكتب لهم وثيقة بالحق المكتسب، وكتب لهم صلح رسمي به شروط على الأمراء، وتعهد من الحكام بالتزام ما يقضى به القانون ويحتمه العرف. وقد أثرت أمثال هذه الصيحة في الأمراء، فصاروا يخشون الشعب خشية عظيمة، حتى إنه عند ما أشيع بحجبة الحلة التركية لإصلاح الحكم في مدة مراد وإبراهيم بقيادة القيودان حسن باشا، دعر الطاغيتان خوفاً من أن ينتهز الشعب تلك الفرصة

فيثور مظهراً ما في نفسه من الألم، فحاولوا التقرب إلى زعمائه. وقد وصف أحد من شهد ذلك العصر تذلل الأمراء بقوله: «فذهب إبراهيم بك إلى الشيخ البكري، ثم الشيخ العروسي والشيخ الدردير، وصار يبكي لهم وتصاغر في نفسه جداً وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومه أو حركة في مثل هذا الوقت، فإنه كان يخاف ذلك جداً» (١).

والحق أن شعب مصر كان عند ذلك قوى الاحساس بنفسه، وبما ينبغي له من الحرية، وما يجب له من الحقوق، لا يتهاون في إظهار ذلك الاحساس بشئ الوسائل كلها لاحت له فرصة، أو كلما حدث حادث يشتم منه رائحة الاستهانة بكرامته أو الاعتداء على حرمانه. ولهذا كانت ثوراته تتوالى عند كل مناسبة، فما تكاد ثورة تهدأ في القاهرة حتى تشب أخت لها في رشيد، وما تكاد تلك تخبو حتى تبدأ أخرى في بلبيس، وكان بعض هذه الثورات يبدو عنيفاً كأنما هو ينذر بثورة شاملة كثورة فرنسا. ونحن إذا بحثنا حال فرنسا قبل ثورتها لاستطيع أن نرى من بوادر ثوران النفوس أكثر مما بدا في أواخر القرن الثامن عشر في مصر، فإن فرنسا ظلت على ما كانت عليه من سوء الحكم، ومن العبث بالحرية إلى أواخر ذلك القرن؛ لا بل إن سوء الحكم فيها قد زاد في أواخر ذلك القرن عما كان في أواسطه. فكانت أفاعيل لويس الخامس عشر وخليته المشنومة في أواخر ذلك القرن جديرة بكل حق وكل غيظ، ولكن الفرنسيين لم يثوروا عند ذلك، وإنما كانت ثورتهم في أيام الملك الطيب الذي جاء عقبه. أما في مصر فقد بدت تلك الثورات كالشرر المتطاير وما كان أفنها أن تنتهي إما بثورة تامة كثورة فرنسا، وإما بإصلاح تدريجي شامل يتناول كل نظمها. وأغلب ظننا أن حكام مصر ما كانوا يسمحوا للأمور أن تتفاقم إلى أن تخرج الصدور وتدفع بها إلى الثورة المدمرة، فقد كانوا دائماً ينزلون عند إرادة الشعب بعد أن يروا غضبته، ويصلحون ما يشكوا منه من فساد، ويقومون ما يشير إليه من اعوجاج؛ وتكررت الأمثلة الدالة على ذلك

فرير أبو مبرير